

الاختيارات المصيرية في حياة الإنسان؛ دربٌ نحو الكمال أم هاوية السقوط؟

كيف تغيّر الاختيارات المصيرية حياتنا حين نقاوم الوسوس؟

تخيّل أنك واقف عند مفترق طرق... إلى اليمين طريقٌ مشرق هادئ، تصطفّ على جانبيه الأشجار الخضراء وتغمره شمسٌ دافئة. وإلى اليسار، ممرٌ مظلم، متعرّج، تتعالى منه أصوات خادعة، تُغري وتربك. هكذا هي الحياة... سلسلة من الاختيارات التي لا مفرّ منها، قرارات مصيرية بين اتباع الحقّ أو الاستسلام للوسوسة. ولكن، هذه القرارات ليست بسيطة دائماً. فخلف كل منها يكمن ما هو أعمق من مجرد "نعم" أو "لا". في الرؤية الإسلامية، الإنسان كائنٌ مختار يملك القدرة على اتخاذ القرار، وهذه نعمة عظيمة، لأنها تمنحه قوة التمييز بين الخير والشر. بيد أن هذه الموهبة في الوقت نفسه، تحمل في طياتها مسؤولية جسيمة، إذ عليه أن يختار من يطيع، وما الذي ينبغي أن يقاومه.

هل تختصر اختياراتنا المصيرية بلحظاتٍ نادرة نقف فيها عند مفترقات كبرى في حياتنا؟ أم أن اختياراً بسيطاً، في لحظة عابرة، قد يحمل في طياته ملامح مصيرٍ كامل؟ وهل طاعة الله مجرد التزام بجملة من الأحكام الصارمة؟ أم أنها طريقٌ إلى السلام الداخلي والنضج الروحي؟ وهل مقاومة الشيطان تعني حرباً مستمرة مع النفس؟ أم أنها تمرين على تقوية أعمق جانب في وجودنا؟ في هذا المقال، نخوض في آثار اختياراتنا، الظاهرة منها والخفية. هذه اختيارات قد تبدو عادية في ظاهرها، لكنها تخوض بجذورها في عمق النفس، وتشكّل ببطءٍ مصير الإنسان. آثار الاختيارات المصيرية: طاعة الله تعالى

لقد خلق الله الإنسان ومنحه حرية الاختيار بين طريقي الحق والباطل. ولكن، وفقاً للبنية الرياضية لنظام الخلق وقاعدة القضاء والقدر، فإن لكل اختيار نتيجة محددة لا مفر منها. لقد بين الله تعالى طريق الحق وطريق

الباطل، ومكّن الإنسان، عبر الوحي والعقل والفطرة، من اتخاذ اختياراته المصيرية بين هذين المسارين. إن اختيار طريق طاعة الله ومخالفة الشيطان لا يبعدنا عن الذنوب فحسب، بل يرتقي بنا في مدارج التقوى، ويمنحنا سكينه القلب وطمأنينة النفس، ويقودنا إلى سعادة الدارين ونضج الروح وكمالها.

وليس شرطاً أن تتجلى هذه الاختيارات المصيرية في مواقف ضخمة، بل أحياناً تظهر في أبسط تفاصيل الحياة اليومية. قرارٌ صغير، كأن تبتسم لطفل غريب في الحديقة بدلاً من تجاهله، قد يكون لبنة في بناء شخصيتك الروحية، لأنه في الحقيقة... كل اختيار هو سهمٌ في تشكيل جوهرك الإنساني.

ولكن السير في طريق طاعة الله يستلزم عزيمة راسخة وإرادة صلبة. فإن كان "القدر" الذي نختاره هو طاعة الله، فإن "القضاء" الذي يترتب على ذلك يحمل آثاراً عظيمة، منها:

• القرب من الله ونيل رضاه

الطاعة لله طريقٌ إلى القرب منه. فكلما ازداد الإنسان التزاماً بأوامره الإلهية، ازداد قرباً من ربه، ونال من رضاه ومحبة الله ما يعمق علاقته به.^١

• الطمأنينة والسكينة الداخلية

الاستسلام لإرادة الله يمنح الإنسان طمأنينة وراحة داخلية، ويحرره من الحيرة والقلق. وهذه السكينة نابعة من يقينه بأنه يسير في الطريق الصحيح، وأن الله راضٍ عنه. ومن يلتزم بأوامر الله، يكون أكثر ثباتاً واطمئناناً في مواجهة تحديات الحياة، لأنه يعلم أن الله دائماً معه ويرشده. وأبرز مثال على الاطمئنان في قلب الشدائد هو موقف النبي موسى (عليه السلام) حين قال في ذروة مطاردة فرعون: «إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ».^٢

^١ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ؛ سورة آل عمران، الآية ٣١.

^٢ سورة الشعراء، الآية ٦٢.

• السعادة والهناء في الدنيا والآخرة:

الطاعة لله تمثل أهم تجلٍ لاختياراتنا المصيرية، لأنها تعني الالتزام بالقوانين الإلهية التي شرعت لسعادتنا. وهذه الطاعة لا تجلب السعادة في الدنيا فحسب، بل تمهّد أيضًا لسعادة الآخرة.^٣ فالذي يلتزم بقيم الصدق والعدل ومساعدة الآخرين، يكون أكثر نجاحًا وقبولًا في حياته الاجتماعية، وفي الوقت نفسه يكتسب صفات حميدة تؤهله للانسجام مع الحياة الأخرى.

• النمو والكمال الروحي:

الطاعة لله تعيننا على تجاوز الغرائز والشهوات، وتوجّهنا نحو الكمال الروحي. إنها تشبه سقي شجرة تنمو شيئًا فشيئًا حتى تثمر. فالشخص الملتزم بالصلاة والصيام، ينمي في نفسه الصبر، والتقوى، وضبط النفس، ويقترب أكثر فأكثر من الكمال الروحي.

• التحكم بالنفس:

إن مخالفة الشيطان تعني مقاومة الوسوس التي تدفع النفس نحو المعصية والابتعاد عن الله. «فالشيطان يستند إلى النفس الأمارة بالسوء، والأهواء، والأنانية، وحب الذات، والشهوات، ليصرفنا عن الصراط المستقيم».^٤ هذه المخالفة تتطلب من الإنسان السيطرة على نفسه، أي أن يتمكن من كبح رغباته، ويختار السير نحو الكمال المطلق بدلًا من الانسياق وراء شهوات عابرة. الإنسان كائنٌ يتوق فطريًا إلى الكمال اللامحدود، ولا يتحقق هذا التوق إلا في الله جلّ وعلا؛ ولذلك فإن من يتحكم في نفسه ويعصي الشيطان، إنما يسير في درب الأبدية.

^٣ وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ؛ سورة النساء، الآية ١٣
^٤ قائد الثورة الإسلامية، خطب صلاة عيد الفطر؛ ١٣٦٩، ٠٢، ٠٧.

• التقوى والورع:

الشیطان والتقوى على طرفي نقيض؛ فمخالفة الشيطان هي بحد ذاتها نوع من أنواع التقوى. ومن يتصدى له، يكون قد وضع أولى خطواته في ذلك الطريق.

آثار الاختيارات المصيرية: طاعة الشيطان

إن الكثير من الناس، بسبب جهلهم بذواتهم الحقيقية، يرون في أوامر الله قيلاً على حريتهم، فيتذرعون للتمرد على الله. لكن معرفة النفس تمنحنا الوعي بأنّ التعاليم الإلهية ما هي إلا قيود على الأبعاد الدنيا من كياناتنا، حتى تنطلق "الأنا" الحقيقية من أسرها وتتحرّر.

كل من يختار بإرادته أن يعارض الله ويُطيع الشيطان، فعليه أن يتحمل تبعات هذا القرار، لأن هذا الطريق لا يؤدي إلا إلى الابتعاد عن درب السعادة والكمال، وله عواقب وخيمة. فعصيان أوامر الله والسير في طريق الشيطان هو خيانة لعشق الإنسان الأسمى، أي لله تعالى. أما المعصية فهي ناتجة عن جهل الإنسان لذاته وتعلق قلبه بغير الله. عندما يُعرض الإنسان عن أوامر ربه ويستسلم لوساوس الشيطان، فإنه يحول دون تحقق أرقى نسخة من ذاته، ويمنع نفسه من بلوغ كماله الحقيقي، أي اللانهاية.

كما أن مخالفة أوامر الله واتباع الشيطان لا تقتصر آثارها على الآخرة، بل تمتد إلى هذه الحياة أيضاً، إذ تجرّ على الإنسان صعوبات ومحناً تُعيقه عن الوصول إلى الجنة والكمال الحقيقي. إليك بعضاً من آثار طاعة الشيطان ومخالفة الرحمن:

• الحرمان من الرحمة الإلهية

في التعاليم الدينية، تُعدّ رحمة الله مصدر الخير والبركة في حياة الإنسان. تشمل الرحمة الإلهية جميع الكائنات، غير أنها تتفاوت في مراتبها، ولا يُنال كمالها إلا بالإيمان والعمل الصالح. مخالفة أوامر الله، أي الإعراض عن

توجيهاته وشرائعه، تؤدي إلى الحرمان من هذه الرحمة الخاصة، لأننا بذلك نَفقد كياننا الانسجام والتناسق مع محبوبنا الحقيقي.

• القلق والاضطراب النفسي

الإنسان مفطور على حبّ السكينة والسعادة، غير أنّ مخالفة الله، والتي تعني الانحراف عن الفطرة الإلهية، تولّد في داخله صراعاً نفسياً وشعوراً بالقلق والشقاء. فعلى سبيل المثال، من يسعى إلى جمع المال بوسائل محرّمة قد يملك ثروة ظاهرة، لكنه يفتقد الطمأنينة الداخلية، ويعيش في حالة دائمة من التوتر والخوف. وقد عبّر القرآن عن هذا المعنى بقوله: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا»^٥. فمخالفة الله هي في جوهرها غفلة عن ذكره، وهذا ما يجلب الحيرة والتعاسة للإنسان.

• السقوط في هاوية الفساد والهلاك

إنّ مخالفة أوامر الله تؤدي إلى الانحراف عن الطريق القويم، وتُسقط الإنسان في وحل المعصية والفساد. وهذا الانحراف، في نهايته، يفضي إلى هلاك الفرد وخراب المجتمع. وقصص الأقوام السابقة الذين أصابهم العذاب والدمار بسبب تمردهم وعصيانهم لأوامر الله، تمثّل مثلاً واضحاً لهذا السقوط والهلاك^٦.

• الانحطاط الأخلاقي والاجتماعي

تتجدّر القيم الأخلاقية والاجتماعية في التعاليم الدينية، ومخالفة أوامر الله تؤدي إلى إضعاف هذه القيم، وبالتالي إلى انحدار أخلاقي واجتماعي. في مجتمع تبهت فيه القيم الدينية، ويتّجه الأفراد نحو مصالحهم الشخصية، يزداد الفساد، ويعمّ الظلم، وتنتشر الاضطرابات الاجتماعية، ويُعدّ انتشار الكذب، والخيانة، والفساد نتيجة مباشرة للإعراض عن أوامر الله.

^٥ سورة طه، الآية ١٢٤

^٦ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ؛ سورة يونس، الآية ١٣

• الضلال والانحراف:

إنّ طاعة الشيطان تعني اتباع وساوسه ودعواته، وهي بطبيعتها لا تخدم مصلحة الإنسان. وقد صُوّر الشيطان في مواضع عديدة من القرآن كعدوٍّ مبين.^٧ وطاعته تقود الإنسان تدريجيًّا إلى الوقوع في فخِّ الأفكار والسلوكيات الخاطئة؛ فعلى سبيل المثال، من ينخدع بوساوسه ويلجأ إلى الكذب، قد يظنّ في البداية أن الكذب وسيلة للنجاة، لكنه بمرور الوقت يقع في هاوية الضلال والعجز، وينفصل عن الحقيقة والأخلاق.

• غياب السكينة

من يتّبع الشيطان غالبًا ما يفقد السكينة تدريجيًا، ومصدر هذا فقدان هو ثقل الذنوب وتأنيب الضمير. قد يشعر المنتفع من خيانة أو كذب بلذّة عابرة، لكنّه سيفقد راحته عاجلاً، ويعيش في صراع داخلي دائم.

• التعرّض للعذاب الإلهي

إنّ اتباع الشيطان لا يؤدي فقط إلى الضلال وفقدان الطمأنينة، بل يقود كذلك إلى عذاب الله.^٨ والعذاب هنا يعني النتائج القاسية والمريرة التي يُواجهها الإنسان نتيجة لاختياراته الخاطئة. هذا العذاب قد يكون محسوسًا في الدنيا وفي الآخرة؛ فمثلاً، من يجمع المال بطرق محرّمة، قد يُواجه في الدنيا عواقب قانونية أو مشكلات ناتجة عن التعدي على حقوق الآخرين، لكنه في الآخرة أيضًا سيكون مسؤولاً عن أعماله ويتعرّض لعذاب الله. وفي نهاية المطاف، كل واحد منا يواجه في مسيرة حياته صوتين: صوتاً يدعونا للهداية، وآخر يوسوس لنا بالضلال ولا يكفي أن نسمع... بل لا بد أن نختار.

واختياراتنا هذه، هي التي ترسم ملامح مصيرنا: إمّا إلى سعادةٍ، أو إلى شقاء.

فنحن لسنا ضحايا ما يحدث لنا، بل صنّاع ما نختار أن نكونه في لحظات الخيارات المصرية.

^٧ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ؛ سورة يس، الآية ٦٠
^٨ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ؛ سورة نحل، الآية ٦٣